من روائع السنّة النبوية

«اختيار الصاحب»

بقلم: د/ محمد نور العلي

إمام مسجد – فرع أم القيوين

قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً)) (١)

الشرح والبيان:

إن الإنسان بفطرته يحتاج إلى من يرشده ويساعده ويسانده ويسدده، ومن ثَم يأنس دائما بمن يوافقه في الطباع ويشاكله في الأخلاق، وقد حثنا النبي ﷺ في هذا الحديث الشريف على اختيار الصاحب وانتقاء الصديق والحرص على مجالسة الصالحين والعلماء العاملين، وإذا كان النبي ﷺ قد نبهنا على تفحص الجليس مع أن المجالسة هيئة متغيرة وحال غير ثابتة ومنقطعة لا تستمر فإن التحري والتثبت يكون من باب أولى فيمن تدوم عشرته وتتأكد مزاملته ومصادقته. وبناء عليه فقد رغب عليه الصلاة والسلام في مجالسة من ينتفع بمجالسته ديناً ودنيا.

قال الحافظ المناوي: قال الحكماء: ((من صحب خيّراً أصاب بركته، فجليس أولياء الله لا يشقى وإن كان كلباً ككلب أهل الكهف)) ولهذا أوصى الحكماء بالابتعاد عن مجالسة السفهاء لأن الطباع سرّاقة، ومن ثم قيل: صحبة الأخيار تورث الخير وصحبة الأشرار تورث الشر؛ كالريح إذا مرت على الطيب حملت طيباً والعكس صحيح.

وقالوا: إياك ومجالسة الأشرار فإن طبعك يسرق منهم وأنت لا تدري حتى بالنظر إليهم حيث من دامت رؤيته للمسرور سُرّ، ومن دامت رؤيته للمحزون حزن، والريحانة الغضة تذبل بمجاورة النبتة الذابلة. والماء والخضرة والوجه الحسن تذهب الحزن عن ناظرها؛ وقد روي عن علي رضي الله عنه قوله: لا تصحب الفاجر فإنه يزين لك فعله ويود لو أنك مثله (٢).

إن هذا الحديث تتجلى فيه روعة البيان حيث يرسم صورة حية صادقة للجليس الصالح الذي ترتاح إليه النفس ويطمئن له الفؤاد وينتفع بمشورته وينعم بصحبته، وقد شبهه النبي ﷺ ببائع الطيب الذي ينفحك بعطره ويغمرك بنشر طيبه، فأنت معه في نشوة غامرة وسعادة مستمرة. قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله: أوصى علقمة العطاردي ابنه عند وفاته فقال: يا بني إذا أردت صحبة إنسان فاصحب من إذا مددت يدك بالخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى منك سيئة سدها ومن إذا قلت صدق قولك وإن حاولت أمراً أمدك وإن تنازعتما في شيء آثرك (٣).

وتعقيباً على وصية العطاردي أقول: هي وصية من السحر الحلال ومن الحكم المأثورة سوى قوله: (ومن إذا قلت صدق قولك) فإنه ليس على إطلاقه، حيث من موجبات الصداقة النصح الصادق والتصويب لما يخطئ فيه الصاحب والصديق ولكن بأسلوب حسن مهذب لا جرح فيه؛ ومن ثم قالوا: صديقك من صدَقك لا من صدَّقك.

ومن جانب آخر فقد نفّر الحديث من جليس السوء الذي فسدت طباعه وساءت أخلاقه وانعدمت خبرته، حيث شبهه النبي ﷺ بنافخ الكير يتطاير من حوله الشرر وينبعث من موقده الدخان والروائح الكريهة، فصحبته حزن لازم وهم دائم، وقد سأل أحد الشعراء جلساءه عن جواب لهذا البيت:

مالي أرى الشمع يبكي في مواقده
من حرقة النار أم من فرقة العسل

فأجابه أحد الأدباء بقوله:

من لم تجانسه فاحذر مجالسه
ما ضر بالشمع إلا صحبة الفَتل

ومن ثم قالوا: من جالس جانس، لأن النفس تقتبس الخير أو الشر من الجلساء؛ ولهذا أمر الله سبحانه بصحبة الصالحين فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة/١١٩).

الفوائد والأحكام:

لقد انطوى هذا الحديث الشريف على عديد من الفوائد والأحكام نجملها في الآتي:

أولاً: في الحديث ترغيب في مصاحبة من ينتفع بمجالسته في الدين والدنيا والتحذير من مصاحبة من يتأذى بمجالسته فيهما.

ثانياً: في الحديث تشبيه بليغ الدلالة حيث شبه النبي ﷺ الجليس الصالح والجليس السوء بحامل المسك ونافخ الكير والجامع بينهما ما يعود على صاحب كل منهما من جراء الصحبة وآثار المجالسة نفعاً أو ضراً في العاجل والآجل.

ثالثاً: يعد هذا الحديث من أحاديث الأمثال في السنة، وهي تقريب للأفهام، وقد كتب كثير من المحدثين حول هذا الأمر مؤلفات عدة منها: (أمثال الحديث للرامهرمزي) و(الأمثال في الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني) والمثل عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني، وهذا النوع من التشبيه يسمى تشبيهاً تمثيلياً.

رابعاً: الجليس الصالح: المراد به: الصديق النافع المتحلي بالأخلاق الكريمة، وفي الحديث الصحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: ((لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي)) (٤).

خامساً: فيه الحكم بطهارة المسك وجواز بيعه، وقد أجمع المسلمون على ذلك، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: أجمع المسلمون على طهارة المسك، وهو دم يجتمع في سرة الغزال في وقت معلوم من السنة فإذا اجتمع، ورم الموضع فمرض الغزال إلى أن يسقط منه، قال المتنبي مادحاً سيف الدولة:

فإن تَفُقِ الأنام وأنت منهم
فإن المسك بعض دم الغزال

والمسك مستثنى من قاعدة (ما أبين من حي فهو ميت) لأن فأرة المسك تؤخذ في حال حياة الحيوان وهو الغزال إلا أنه يتغير من كونه دماً ليصير مسكاً فالمسك شيء ينتج عن الحيوان كالبيض.

وذكر النووي رحمه الله فيما يستفاد من الحديث فقال: إن العلماء أجمعوا على طهارة المسك واستحبابه وجواز بيعه ولم يخالف في ذلك أحد ممن يعتد بقوله. ثم قال: ومن الدلائل على طهارته: هذا الحديث وفيه (وإما أن تبتاع منه) وأنه ﷺ كان يتطيب بالمسك ويصلي به ويخبر أنه أطيب الطيب وشبه به دم الشهيد يوم القيامة (٥).

سادساً: ليس في الحديث ذم لمهنة الحدادة لأنه من الكسب المشروع ومن عمل الأنبياء كما قال تعالى عن عبده ونبيه داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (الأنبياء/٨٠) وهي مهنة يحتاج إليها المجتمع، بل هو بأمس الحاجة إليها، وما تشبيه رسول الله ﷺ كان واضعاً لهذه المهنة وذاماً لها؛ لأنه ليس من المعقول أن يذم صنعة كان يقوم بها الملك داود نبي الله عليه السلام بل إن الله سبحانه مدحها له وسهلها عليه فقال سبحانه: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٦) (سورة سبأ/١٠-١١)

لا تصحب الفاجر فإنه يزين لك فعله ويود لو أنك مثله

الخاتمة:

هذا الحديث النبوي المتفق عليه يعتبر من روائع السنة النبوية -وكل حديث رسول الله روائع- حيث بين فيه معيار الصديق والصاحب وأجمل فيه كل ما قيل حول هذا الأمر من حكم وشعر ونثر، كيف لا وقد أوتي جوامع الكلم، فلنحرص على العمل بهديه والاستجابة لنصحه، ولنجعل كلامه في الأفئدة والمقل

لا ينزل المجد إلا في منازلنا
كالنوم ليس له مأوى سوى المُقَل (٧)

نفعنا الله بهدي رسول الله ﷺ، اللهم آمين.

المراجع

١- أخرجه البخاري برقم ٢١٠١- وبرقم ٥٥٣٤ / ومسلم برقم ٢٦٢٨.
٢- فيض القدير ٥/ ٥٠٦ بتصرف
٣- إحياء علوم الدين «آداب الألفة والأخوة» ٢/ ١٥٧
٤- أخرجه أبو داود برقم ٤٨٣٢ والترمذي في الجامع ٤/ ٥١٩ وقال: حديث حسن، وأحمد في المسند ١١٣٣٧ والحاكم في المستدرك ٤/ ١٢٨ وصححه وأقره الذهبي وصححه السيوطي في الصغير ٩٨٠٨
٥- فتح الباري ٤/ ٣٢٤ -- ٩/ ٦٦٠. شرح النووي لصحيح مسلم ٨/ ٤٢٧ «بتصرف واختصار»
٦- ثمار من السنة للدكتور سعيد الصوابي
٧- ينسب هذا البيت لعبد المطلب جد النبي ﷺ.

هكذا كان .. نبي الهدى والرحمة

بقلم: عامر بن محمد العثمان
إمام مسجد في الهيئة

لا يمكن لأي مجتمع أن يحقق التميز والقوة والتقدم إلا إذا تحققت فيه ثلاثة أمور (المودة،الرحمة،العطف).

ويأتي هذا مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (أخرجه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.)

ومن المعلوم أن الله تعالى قسم رزقه بين خلقه، فجعل منهم الغني والفقير والصغير والكبير والعامل والمدير قال تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً﴾ (الزخرف/32)

وجعل العلاقة التي تربط بين الأدنى والأعلى منهم ترتكز في أساسها على الأخوة والاحترام المتبادل، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى» رواه البيهقي عن جابر بن عبد الله.

فإذا بقيت هذه العلاقة على أصلها، وعلمنا أن هذا الإنسان الذي جعله الله تحت أيدينا -سواء كان ابناً أو عاملاً أو ضعيفاً أو معاقاً أو غير ذلك- هو أخ لنا فمعنى ذلك كله أننا نعيش في مجتمع حضاري متميز تنعدم فيه العنصرية والتفاضل بالأنساب والأموال ويغلب عليه طابع المودة والمحبة.

وخير من نقتدي به في ذلك نبينا محمد عليه الصلاة والسلام الذي تميزت علاقته مع أزواجه وخدمه وجيرانه وإخوانه.

وإليك أخي القارئ بعض الصور التي تبين لنا عظمة نبينا صلى الله عليه وسلم في تعامله مع الآخرين.

علاقة النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل بيته

«قيل لعائشة: ماذا كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته؟ قالت: كان بشرًا من البشر: يفلي ثوبه ويحلب شاته، ويخدم نفسه» (رواه أحمد والترمذي)

وعن الأسود بن يزيد قال: سألت عائشة رضي الله عنها، ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في البيت؟ قالت: «كان يكون في مهن أهله، فإذا سمع بالأذان خرج» (رواه مسلم).

يقول الحسين رضي الله عنه: سألت أبي عن سير النبي صلى الله عليه وسلم في جلسائه، فقال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ غليظ ولا صخاب، ولا عياب، ولا مشاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه راجيه، ولا يخيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدًا ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه...» (رواه الترمذي).

ومن صور الترحيب والبشاشة لابنته ما روته عائشة رضي الله عنها حيث قالت: كن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عنده، فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تمشي ما تخطيء مشيتها من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا فلما رآها رحب بها وقال: «مرحبا بابنتي» ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله (رواه مسلم).

ومن عطفه ومحبته صلى الله عليه وسلم لبناته زيارتهن وتفقد أحوالهن وحل مشاكلهن.. أتت فاطمة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم تشكو إليه ما تلقى في يديها من الرحى وتسأله خادمًا، فلم تجده، فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فلما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم أخبرته؛ قال علي رضي الله عنه: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال: «مكانكما» فجاء فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري، فقال: «ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم؟ إذا أويتما إلى فراشكما، أو أخذتما مضاجعكما، فكبرا أربعًا وثلاثين وسبحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين فهذا خير لكما من خادم» (رواه البخاري).

ومن حسن خلقه وطيب معشره عليه الصلاة والسلام، نجده ينادي أم المؤمنين بترخيم اسمها ويخبرها خبرًا تطير له القلوب والأفئدة!

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا: «يا عائش! هذا جبريل يقرئك السلام» (متفق عليه).

وهذا نبي الأمة صلى الله عليه وسلم وأكملها خلقًا وأعظمها منزلة، يضرب صورًا رائعة في حسن العشرة ولين الجانب ومعرفة الرغبات العاطفية والنفسية لزوجته، وينزلها المنزلة التي تحبها كل أنثى وامرأة لكي تكون محظية عند زوجها!

تقول عائشة رضي الله عنها: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال للناس: «تقدموا» فتقدموا ثم قال: «تعالي حتى أسابقك» فسابقته فسبقته، فسكت عني حتى حملت اللحم، وبدنت وسمنت وخرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس «تقدموا» ثم قال: «تعالي أسابقك» فسبقني، فجعل يضحك ويقول: «هذه بتلك» (رواه أحمد).

علاقة النبي صلى الله عليه وسلم مع خدمه

كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعامل الخدم؟ هل كان يترفع عليهم؟ أم كان يحاسبهم حساباً شديداً إذا أخطؤوا؟

هذه الأسئلة وغيرها يجيبنا عنها ذاك الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه الذي كان يفتخر بأنه خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: «ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي قط أف، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟» متفق عليه.

الدين الإسلامي يرسّخ لكل ما يدعو إلى الترابط والتآخي

وعن عائشة رضي الله عنها قالت «ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط بيده، ولا امرأةً ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله...». رواه مسلم.

روي أن رجلا قال: يا رسول الله، كم تعفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام، فصمت، فلما كان في الثالثة قال: «أعفو عنه سبعين مرة» رواه الترمذي عن ابن عمر.

وهل بعد هذا القول من قول؟ بل إنه قد وصل الأمر إلى أبعد من ذلك فقد أمر نبي الهدى والرحمة عليه الصلاة والسلام أن من كان له أخ تحت يده ألا يكلفه بما لا يطيق وإذا كلفه أن يعينه، فقد روي في الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم»

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: بينا أنا أضرب غلاما لي إذ سمعت صوتا من خلفي، فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام». فقلت: هو حر لوجه الله، فقال: «لو لم تفعل لمستك النار». وجعل للقاضي حق الحكم بالعتق إذا ثبت أنه يعامل معاملة قاسية.

فهل يستطيع أحد أن يطعن في هذا الدين ويقول: إن المسلمين متخلفون؟ كلا والله فإن الشمس إذا أشرقت طغى نورها على كل نور.

حقاً إن أي مجتمع يعامل فيه الناس -حتى الخدم- بهذه المعاملة الطيبة هو مجتمع متحضر بل وصل إلى أعلى درجات الحضارة.

علاقة النبي صلى الله عليه وسلم مع جيرانه

اشترط لتمام الإيمان بالله واليوم الآخر إكرام الجار، وحسن الجوار؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره». رواه البخاري ومسلم.

بل أقسم النبي صلى الله عليه وسلم على أن من يؤذي جاره، ولا يُؤمَن من شروره وغوائله بأنه منتف عنه الإيمان؛ فعن أبي شريح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن). قيل: ومن يا رسول الله؟ قال (الذي لا يأمن جاره بوائقه) رواه البخاري ومسلم.

وقال لأبي ذر -رضي الله عنه-: (يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعهد جيرانك) رواه مسلم. وهذا يدل على أهمية العناية بالجار ولو بالشيء القليل، وكل ذلك من أجل تقارب القلوب، فإن الهدية لها أثر بالغ في نفوس الآخرين.

وكان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم في حق الجار على جاره أيضاً أن يكون له عوناً في وقت شدته في حال فقره ومرضه وحاجته، ومن حقه عليه أن يفرح له عندما تحصل منحة تفرحه، ويحزن عندما تنزل به مصيبة تحزنه، فيفرح لفرحه، ويحزن لحزنه، ويحفظه في أهله، ويقوم بالواجب في حال غيبته، وينصحه إذا زل، ويذكره إذا غفل، ويعلمه إذا جهل؛ وأن يعمل بما جاء في الأثر المروي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا استعانك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيته، وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطيل عليه بالبناء تحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذيه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده) أخرجه البيهقي في الشعب.

والسؤال هنا: لو أن كل جار عامل جاره بالمعاملة نفسها التي أرادها لنا النبي عليه الصلاة والسلام، فهل سيبقى في مجتمعنا المسلم إنسان واحد حزين؟

علاقة النبي صلى الله عليه وسلم مع الأطفال

مرحلة الطفولة من أخطر المراحل، ولقد كان السلف الصالح يعنون بأبنائهم منذ نعومة أظفارهم، يعلّمونهم وينشّئونهم على الخير، ويبعدونهم عن الشرّ، ويختارون لهم المعلمين الصالحين والمربين والحكماء والأتقياء.

والنبي صلى الله عليه وسلم كان يلاعب الأطفال، ويمشي خلفهم أمام الناس، وكان يقبلهم ويضاحكهم.

جاء الأقرع بن حابس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه يقبّل الحسن بن علي، فقال الأقرع: أتقبّلون صبيانكم؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم» فقال الأقرع: إن لي عشرةً من الولد ما قبلت واحدًا منهم قط، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لا يرحم لا يرحم» متفق عليه.

لما جاءت أم قيس بنت محصن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن لها صغيرٍ لم يأكل الطعام، فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلّم فبال على ثوبه، فدعا بماء فنضحه عليه ولم يغسله.

هكذا بكل بساطة لم يغضب ولم يأنف من بول هذا الغلام، وهذا الموقف الخلقي من النبي صلى الله عليه وسلم يذكرني بقول جميل لشاعر النبي عليه الصلاة والسلام حسان بن ثابت رضي الله عنه وهو يقول:

وأجمل منك لم تر قط عيني	وأفضل منك لم تلد النساء
خُلقت مبرءا من كل عيبٍ	كأنك قد خلقت كما تشاء

الأطفال هم حياة البيوت، فبيتٌ لا أطفال فيه بيت فيه نقص. إنهم -أيها الإخوة- يملؤون البيت إزعاجًا ولكنهم يملؤونه فرحًا وسرورًا، يملؤونه فوضى ولكنهم يملؤونه ضحكًا وابتهاجًا.

سئل غيلان بن سلمة الثقفي: من أحب ولدك إليك؟ فقال: صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يحضر.

روى الإمام أحمد في مسنده أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: كنا نصلي مع النبي ﷺ العشاء، فإذا سجد رسول الله ﷺ وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا رفع رأسه أخذهما من خلفه أخذًا رفيقًا ووضعهما على الأرض، فإذا عاد إلى السجود عادا إلى ظهره حتى قضى صلاته، ثم أقعد أحدهما على فخذيه...

علاقة النبي صلى الله عليه وسلم مع كبار السن

اهتم الإسلام بالإنسان في جميع مراحل حياته من منطلق الكرامة التي قررها الإسلام لكل فرد من بني آدم، حيث يقول الله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ [الإسراء: ٧٠] ويقول جل جلاله: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾ [الإسراء: ٢٣]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه». (أخرجه الترمذي) وقال أيضا: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا» (رواه الترمذي وأحمد في مسنده).

وإذا أردت أن تعرف أكثر عن إكرام النبي صلى الله عليه وسلم لكبار السن، فتعال معي لنعيش هذا الموقف الإنساني من نبي الهدى والرحمة، وهو يكرم شيخاً طاعناً في السن.

في يوم فتح مكة أسلم أبو قحافة -والد سيدنا أبي بكر- وكان إسلامه متأخرا جدا وكان قد عمي، فأخذه سيدنا أبو بكر وذهب به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه ويبايع النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر هلا تركت الشيخ في بيته، فذهبنا نحن إليه! فقال أبو بكر: لأنت أحق أن يؤتى إليك يا رسول الله.. وأسلم أبو قحافة.. فبكى سيدنا أبو بكر الصديق، فقالوا له: هذا يوم فرحة، فأبوك أسلم ونجا من النار فما الذي يبكيك؟ رواه الإمام أحمد والطبراني.

المودة والرحمة والعطف أسس لبناء مجتمع مترابط

والمسلم مطالب بأن يلتزم بالآداب الإسلامية والإنسانية مع أقاربه مثلما يلتزم بها مع والديه. وعليه أن يوقر الكبير ويرحم الصغير، ويعود المريض، ويواسي المنكوب، ويعزي المصاب. والرسول عليه الصلاة والسلام يحث على التراحم والتعاطف بين الناس كما في قوله: «يقول الله تعالى: أنا الرحمن، وقد شققت للرحم اسمًا من اسمي».

واهتم الدين الإسلامي الحنيف بكبار السن فأمر برعايتهم واحترامهم وتقديرهم. وفي تكريم كبار السن أيضاً، يروي البخاري عن أبي سعيد سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كنت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم غلامًا فكنت أحفظ عنه، فما يمنعني من القول إلا أن ههنا رجالاً هم أسن مني.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: (رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه) قيل: من يا رسول الله؟ قال: (من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة). بل إن النبي عليه الصلاة والسلام قد أخبر بأن احترامنا وتوقيرنا لكبرائنا يعد من إجلال الله تعالى، فقد ورد في الحديث: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم» أخرجه أبو داود عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وهو حديث حسن.

قصة لا تخلو من عبرة

فهذا رجل يدخل المسجد ويتبول فيه، من دون مراعاة لحرمة المكان ووجود الناس فيه، فيتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينتهي، ثم يدعوه إليه ليعلمه أن للمسجد حرمة وأنه للصلاة والذكر والتسبيح. فعن أنس رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مه مه» قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تزرموه، دعوه، فتركوه حتى بال. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة، وقراءة القرآن» قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو من ماء فشنه عليه. رواه مسلم.

وهكذا كان لمعاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعرابي بالرفق أعظم الأثر في نفسه.

نتبين مما سبق مدى الرحمة الواسعة التي منحها الإسلام ورسول الإسلام، للبشر بشكل عام، فقرر الشرع أن التعامل يكون بالحوار، والدعوة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ويخص الإسلام أهل الكتاب بهذا الفضل، فهم أهل كتاب، وإخوة في الإنسانية.

هذا هو ديننا، وهذه هي عقيدتنا، نحرص على الحوار البناء مع الأديان كافة، والأجناس عامة فديننا دين الوسطية والاعتدال، والمحبة والخير لكل الناس.

وفي الختام: أوصي نفسي وكل مسلم، أن نكون قدوة في التعامل، سواء مع أبنائنا أو جيراننا أو نسائنا، حتى من هم ليسوا بمسلمين، ناهلين من معين هدي نبينا ﷺ وقرآننا، وذلك لأن كل مسلم إذا أحسن التصرف أعطى صورة حسنة للمسلمين، وإذا أساء فقد عكس انطباعاً سيئاً عنهم.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه

اللهم اجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين واحشرنا في زمرة النبيين بفضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين.